خبر موتو اطمأن بالهُ وادار وجههُ نحو المشرق وكان قد مضى الشتاء واقبل الربيع وجاءتهُ التجدات من مكدونية فزحف بها ولاقى داريوس في واقعة اسوس الشهيرة كما سيجيء

الفلسفة الهندية

لحضرة الباحث الاديب صموئيل افندي يني الطرابلسي

ذهب جماعة من العلماء الى ان التمدُّن نشأ على ضفاف النيل وان الهند مهد المدنية والعمران ومهما كان مرجع هذا الرأي من الصدق فاننا نعلم ان الهند سارت في العصور الغابرة شوطاً بعيداً في المعارف وكان لها في العلوم القدح المعلّى ومن الفلسفة النصيب الاوفر الاَّ ان اخبار ازدهارها العلمي لبثت زمناً طويلاً وراء حجب الخفاء لا نعلم من آثارهِ شيئاً الاَّ ما نقلهُ الينا بضعة من المؤرخين الاقدمين كتقوطرخس وسترابون واريانوس متصلاً اليهم عن رواة حملة الاسكندر المكدوني يوم اجتاح الهند وبلغ ضفاف الاندس

على ان ما نقلوهُ لنا عن عقائد الهند وآدابها وفلسفتها كان نزراً قليلاً لكنهم نقلوا حقيقة ما اتصلوا اليهِ غير مشوهة بالغلو وقد ايدت صدق رواياتهم ابحاث العلماء المتأخرين واكتشافاتهم

وظلَّ ذلك النزر القليل من اخبار الهند العلمية كل المعروف عنها حتى نشأت الجمعية الاسيوية في كلكتا عام ١٧٨٥ م وعندئذٍ اقبل علماء الافرنج على درس لغة الهند والبحث في اديانها وفلسفتها حتى بلغوا في ذلك شأواً عظيماً ونشروا مما اطلعوا عليهِ المؤلفات الكثيرة ومن اشهر اولئك العلماء العلامة كولبروك فانهُ اقام في الهند السنين الطوال تعلّم في غضونها اللغة السنسكريتية ولازم جماعة من كبار البراهمة حتى وقف على قضايا كثيرة في الفلسفة الهندية نشرها في مجموعة الجمعية الاسيوية في لندن . ولما كانت مباحث اولئك القوم عن الفلسفة الهندية جديدة عندنا ولا تخلو من الفائدة واللذة معاً فاستبيح القراء الاذن للاتيان على لمحٍ من اخبارها على قدر ما يتيح لي المقام

اتفق علماء المشرقيات على ان في الهند ستة مذاهب فلسفية اصلية واليك اسماؤها وهي سانكيا . يوكا . نيايا . ميدشكا . مياتزا . فدانتا . وان كان يثقل على لساننا التلفظ بهذه الكلمات وتستوحش آذاننا استماعها فان لها في بلادها صبغة من المجد تخلو كلما مرَّت على افواههم وراثة من الشرف تطرب لها آذانهم فاعلم انها اثبت في الغرب لعهدنا هذا كل حفاوة وتجيل وانزلها على رأسهِ منزلة الضيف الكريم

ومن تلك المذاهب الستة المذاهب الاربعة الاولى فانها فلسفية بحتة اي انها لا تعتمد في شيء من ابحاثها على الكتب المقدسة عندهم ولا استندت تعاليمها الى ما وراء الطبيعة ولعلّ هذا الامر كان السبب الذي حمل العلّامة كولبروك على اتباع الكلام بها . اما المذهبان الباقيان فليسا سوى بسط وبزيد بيان للتعاليم الدينية المدونة في الفيدا كتاب المعرد الديني بحيث ان امتزاج الدين بالفلسفة امر مرغوب فيهِ ولهُ الشان العظيم عند جميع الامم في كل ازمنة التاريخ ولاسيما اهل الهند فهم اشد الامم رغبة في ذلك ومع هذا لم ترتبط افكار فلاسفتها بقيد من القيود بل اطلقت العنان للقوى العاقلة تبحث في شؤون الكون واحوالهِ بحرية والاستقلال لا تبتغي غير الحقيقة غاية الباحثين . وجملة القول ان حال العلماء على ضفاف الكنج المقدس كانت حالتهم في اثينا يوم كانت مهط رحال العلم والفلسفة

(١) سانكيا

هذا المذهب من اكثر المذاهب السنسكريتية استقلالاً واوفرهن انتظاماً لا يعتمد في شيء من ابحاثهِ على الكتب المقدسة عندهم وفوق ذلك ينكر عليها قولها بان من تتبع تعاليمها وعمل باوامرها نال الخلاص والسعادة الابدية ويقول ان لا سبيل الى ذلك الخلاص الاّ بدرس المعارف التي يعلمها مذهبهُ وانها الذريعة الوحيدة التي يبلغ معها الانسان تلك الغاية السامية

اما كلمة سانكيا اذا اعتبرت اسم موصوف كان معناها عددًا واذا اريد التوسع في معناها كانت قياساً او تعقلاً وقد اخطأ من قال بوجود الشبه في المعنى بين اسمي فيثاغورس وكابيلا (واضع هذا المذهب) بحيث يتبادر الى الذهن انهُ كان للعدد شأن في مذهبهِ كشأنهِ عند الفيثاغوريين على ان المعنى الحقيقي لسانكيا على قول البعض العقل فيكون في ذلك اقرب الى مذهب العقليين من غيرهِ لاسيما وانهُ يرفض بتاتاً كل حكم غير احكام العقل وهو في ذلك على رأي افلاطون وديكارت من حيث انهما يرفضان كل الاحكام التي ينبذها العقل السليم ومع ذلك ترى اصحابهُ يعتبرون الوحي والكتب المقدسة

اما كابيلا صاحب هذا المذهب وواضعهُ فمن اشهر فلاسفة الهند وقد وضعهُ قومهُ في مصاف اوليائهم وذكروا لهُ في اساطيرهم اخباراً وحكايات طويلة فتارةً يقولون انهُ ابن برهم وطوراً انهُ تجسد عن فيشنو واونةً انهُ حفيد مانو كل ذلك دليل قاطع على ما للفلسفة من الاعتبار في الهند اما مذهبهُ فقديم جدًّا واقدم عهدًا من البوذية التي قرر الباحثون انها وجدت منذ ٢٤٠٠ سنة

وهذا المذهب يسلّم بوجود ثلاثة مصادر للعلم وهي الادراك والاستدلال والمشاهدة وان

المبادىء التي تبنى عليها تلك المصادر خمسة وعشرون مبدءاً وهي (١) الطبيعة او المبدأ القادر على كل شيء ومصدر ما بقي من المبادىء (٢) العقل وهو اعظم المبادىء (٣) الشعور الداخلي او الوجدان (٤ — ٨) الخمسة الاجزاء اللطيفة وهي الدور . والصوت . والرائحة . والذوق . والحس . وهذه الاجزاء هي جواهر الخمسة العناصر الضخمة (٩ — ١٩) اعضاء الحس الاحد عشر . (٢٠ — ٢٤) العناصر الخمسة الضخمة وهي الاثير . والهواء والنار . والماء . والتراب (٢٥) النفس الازلية المجردة عن المادة

قلنا ان الطبيعة في عرف هذا المذهب مصدر كل شيء وان منها على رايهم ايضاً تألف سائر المبادىء وهي منتشرة في الثلاثة والعشرين مبدءاً وما تلك المبادىء الاَّ فروع منها ومن اجتماعها تألفت العوالم والخلائق التي لا بدَّ لها ان تفنى يوماً او بالحري ان ترجع الى صدر الطبيعة من حيث خرجت اما الطبيعة فابدية غير مخلوقة وليس لها ابتداء ولا انتهاء وقد اوجدت كلما يمكننا الحس من ادراكه واول ما اوجدت العقل الذي اوجد الشعور الداخلي ثم اوجد هذا ما يليه من المبادىء بحيث تكون المبادىء الثانوية موجودة وواجدة معاً الاَّ الطبيعة فانها واجدة لا موجودة وهذا القول هو الذي حمل براهمة الهند على نعت المتمذهبين بهذا المذهب بالضلال والكفر

اما النفس فقد اخرجوها عن حكم سائر المبادىء وعزّوها بانها ازلية كالطبيعة وهي مثلها غير مخلوقة لكنها لا تخلق غيرها فهي عقيم وعلى ذلك تكون النفس والطبيعة مبدأين متساويين من حيث الازلية وممتازين ايضاً بخصائص اخرى غير ما بقي من المبادىء التي سبق فعددناها

والنفس مستقلة عن الطبيعة في ذاتها لانها لم تصدر عنها وزد على ذلك ان لها حق الرئاسة عليها لأن الطبيعة عمياء والنفس تستطيع وحدها ان تدرك الاشياء وان تحصّل المعارف الاَّ انها بدون الطبيعة لا يمكنها بلوغ الغاية التي تشتهيها تعني بتلك الغاية السلام الابدي لذلك يجب عليها درس الطبيعة درساً دقيقاً حتى تستطلع شؤونها وتعرف احوالها معرفة تامة ثم يترتب عليها ايضاً ان تدرس ما بقي من الاشياء حتى تميز بينها . وعلى ذلك تكون النفس في منتهى الحاجة الى الطبيعة لانها في ذاتها غير قادرة على العمل وتلك تعمل وقد شبهوا اتحادهما بالاتحاد الاعرج مع الاعمى فانهما باتحادهما يستعينان على المشي والنظر معاً

ثم قالوا ان النفس تتحد مع الجسد زمن حياته على الارض ويوم تفارقه يعود الى العناصر الضخمة التي تألف منها واما هي فتخلّ من الروابط المادية وتدخل السعادة الابدية . والدرجات التي تمرّ عليها بعد الموت اربع عشرة تبتدئ من برهم كبير الآلهة وتنتهي عند الموجود الجامدة

خمس منها تحت الانسان وهي مؤلفة من المواد الآلية وغير الآلية وما بقي من الدرجات من فوق الانسان وتبتدىء من اقل الجن حولاً وتنتهي عند اسمى الآلهة اقتداراً . هذا ولا بدَّ للنفس من المرور بعد الموت على تلك الدرجات صاعدة بالتتابع من الادنى الى الاعلى ذلك على قدر ما عندها من الفضائل والعلوم ويعكس الامر فتنحدر من الاعلى الى الاسفل على قدر جهلها وعيوبها على ان سنَّة التناسخ هذه لا مناص للبشر منها حتى ان الآلهة نفسها لا تتخلص من حكم قانونها المريع

هذه لمحة من تعاليم كابيلا القاها على تلاميذه فدونوها ونشروها من بعده في العالم الهندي ولا ريب ان مذهبهُ اقرب الى المذاهب الروحية منهُ الى غيرها وقد مرَّ بك كيف فصل النفس عن الطبيعة وجردها عن المادة وجعلها ازلية كما عرفها الروحيون واتباعهم

(٢) يوكا

هذا المذهب يشبه في معظم تعاليمه مذهب سانكهيا المار ذكرهُ فانهُ قال بالاربعة والعشرين مبدأً التي قال بها كابيلا الاَّ انهُ خالفهُ في المبدإ الخامس والعشرين حيث وضع الله موضع النفس وكل تعاليمه مدونة في كتابه المنون يوكاسترا او يوكاسوترا ومعناهُ حكم يوكا ومعظم ما في الكتاب بيان لكيفية مناجاة الحق وكلام عن وسائل التهذيب وعن القوات الفائقة الطبيعة التي يناجيها على الارض ثم عن الانجذاب

(٣) بتايا

هو المذهب الفلسفي الثالث ومعناهُ في اللغة السنسكريتية دليل او مرشد وواضعهُ رجل يسمَّى كاتوما وقد قاسم فيهِ ارسطو الفخر وبعد الصيت لانهُ وضع لقومهِ سننًا تعلمهم المناظرة وطرق المقايسة . ولمنطقهِ شأن في الهند لا يقل عن شأن قانون ارسطو في الغرب وما برح منذ نشأتهِ حتى اليوم مثالة الطلاب في جميع المدارس الهندية على اختلاف نزعاتها وتباين مذاهبها وقد لقي من الشراح والمفسرين في كل عصر ما لقي المنطق اليوناني في الغرب وزد على ذلك ان اليوناني قد تقلص لعهدنا هذا نفوذهُ وسقط عن عرش ابهتهِ واما الهندي فلم يزل عند قومهِ في سدرة عظمتهِ يتنافس فيهِ المتنافسون . ومعرفة زمن نشأتهِ معرفة تامة من المسائل التي لم يزل نصيبها الغموض والخفاء الا انهُ من المرجح ان زمن نشأتهِ لم يكن بعد القرن السادس قبل المسيح

والكتاب الذي يتضمن تعاليم بتايا طبع في مدينة كلكتا عام ١٨٢٨م مشروحًا من ابرع علماء الهند وهو مقسوم الى خمسة ابواب وكل باب الى فصلين فالباب الاول يبحث في ماهيتهُ

منطق كوتاما وهو مجموع قواعد يتعلم بها الانسان طرق المناظرة واساليبها على انهُ استهل فاتحة كتابهِ بوعد الذين يتمذهبون بمذهبهِ ويدرسون علومهُ بالسعادة الابدية ذلك شأن كل المذاهب السنسكريتية الفلسفية والدينية معاً فانها تستفتح تعاليمها بوعد مريديها بالسعادة الابدية لأن العقول هنالك لا تحوم على فلسفة ولا تطلب علماً ما لم ترَ في ذلك العلم او تلك الفلسفة ما يكفل لها السعادة والسلام الابدي ولهذا وضع كاتمو تلك الوعود بالسعادة مشروطاً فيها لمن عرف الدليل وموضوعهُ حق المعرفة . اما موضوعات الدليل فهي الشك والسبب والمثل والتحقيق (ويشتمل التحقيق على البرهان) والنتيجة والاعتراض والجدل والمماحكة والسفطة والمواربة والجواب الباطل وقليل الكلام والسكوت . هذه هي المباحث التي وضعها كوتاما واطلق البعض عليها اسم المقولات مع انها ليست في شيء من ذلك وهي التي قال انها ترشد الانسان الى الحقيقة وتمتعهُ بالراحة والسلام الابدي

وهذه المباحث مشروحة في اول الكتاب ومقسومة الى قسمين الاول ينتهي حيث النتيجة والثاني يبتدئ من الاعتراض وينتهي في البحث الاخير حيث تقليل الكلام والتزام السكوت وغاية المؤلف من ذلك كلهِ تبيان جميع الاوجه التي تنقلب عليها المناظرة

وقد ذهب البعض الى وجود الشبه بين منطق ارسطو ومنطق كوتاما هذا والى ان الاول نسج على منوال الثاني والحال ان منطق كوتاما مقتصر على البحث في علم المناظرة وليس فيهِ ذكر للقياس واحكامهِ ولا القضايا ولا المقولات العشر تلك القواعد التي اكسبت اليوناني فخر الاختراع وان كان احدث عهداً من الهندي الا انهُ اعظم منهُ قدراً واحكم اسلوباً

(٤) فيدشكا

هذا المذهب الرابع الفلسفي ووضعهُ الفيلسوف كانادا ولهُ عند قومهِ المكانة العليا حتى جعلهُ رواة اساطيرهم خارجاً من برهم كبير الالهة وقد نشأ مذهبهُ حينما نشأت الفلسفة اليونانية

وبكانادا كتاب مطبوع يحتوي على عشرة ابواب وفي كل باب منها فصلان ومعظم ابحاث الكتاب في الطبيعيات والجواهر وقد افتتحهُ بذكر موضوعات الدليل او كما قال البعض المقولات وهذه المقولات ست وهي المادة والصفة . والعمل . والكليات . والتباين . والعلائق الداخلية . وزاد عليها الشراح مقولة سابعة وهي السلب

وبعد ان بسط تلك المقولات عرّف كل واحدة منها على التتابع وعدّد كل الانواع التي تدخل تحت كل واحدة منهنَّ فالمادة عندهُ مركز جميع الصفات والاعمال والماديات تسعة وهي التراب والماء والنور والهواء والاثير والوقت والحيز والنفس وقال ان عناصر الخمس الاولى مؤلفة

من جواهر ازلية وان باتحاد الجواهر بعضها على بعض تتألف الاجسام ثم ضرب مثلاً على الجواهر ودقتها فقال ان ما يشاهده الانسان مما يتطاير في اشعة الشمس ليس هو على دقته الا خشناً بالنسبة الى دقة الجواهر الحقيقية التي تتألف منها الاجسام . وبعد المادة عرّف الصفة وهي اللون والطعم والرائحة والعدد والكم الى غير ذلك ومن هذه الصفات خمس عشرة صفة مادية وثمان عقلية وهي الادراك واللذة والالم والرغبة والكراهة والارادة والرذيلة والفضيلة . واما المقولة الخامسة وهي البين فلم تنل من كولبروك عناية بغيرها ولذلك نضرب عن ذكرها صفحاً وما نصيب المقولة الاخيرة الا مثل نصيب التي قبلها . وهنا يرى المطالع لاول وهلة وجه الشبه بين هذه المقولات ومقولات ارسطو العشر

على ان هذه المذاهب الاربعة على اختلاف صبغاتها لم تبحث الا عن تكوين العالم ولم تعبأ بالعلوم النفسية (البسيكولوجيا) كثيراً كما فعل فلاسفة اليونان لاسيما الافلاطونيون منهم

ويتبع هذه المذاهب الاربعة المستقلة عن كل سلطة دينية مذهبان آخران خاضعان كل الخضوع للفيدا و يعرفان باسم ميمانزا الاول وميمانزا الثاني ولما كان كتابهم المقدس تارة يتكلم عن واجبات الانسان وحيناً عن الخالق ووجوب معرفته قسم الميمانزا حسب تلك التعاليم فالذي شرح الواجبات سمي كراما ميمانزا والذي تكلم عن الخالق سمي ميمانزا براهما وعرف ايضاً باسم فادانتا

(٥) ميمانزا

ومذهب ميمانزا منسوب الى دجامتين وهو رجل لا يعرف من امره اكثر مما يعرف من امر كابيلا وكانادا وغيرهما من واضعي المذاهب الفلسفية ومذهبه مجموع في مؤلف يحتوي على اثني عشر باباً فيها نحو ٢٦٥٢ قانوناً . وغاية المؤلف شرح الواجبات حسبما فرضها كتابهم المقدس

فالباب الاول من الاثني عشر باباً يبحث في الواجبات المفروضة على الانسان ويبحث في الباب الثاني عن تنوع الواجبات واختلافها وفي الثالث والرابع عن وجوب تتميم تلك الواجبات والقيام بايفائها سواء كانت صارمة او غير صارمة وفي الخامس والسادس بيان للاخلاق التي يجب اتباعها و بعد ان بيّن في هذه الابواب كل الواجبات اتى في الستة الباقية على ذكر مسائل ضرورية البتة ما قبلها وهي هل يوجد واجبات غير الواجبات المفروضة من الفدا وهل انها وجوبية مثلها ؟ أو لا يوجد تبعاً للاحوال شيء من التغيير في وجوب العمل بالواجبات الصارمة أو لا يوجد في بعض الاحوال تسامح حيث ذلك ضروري . وجملة القول ان هذا الكتاب مفيد جداً لمن يروم الاطلاع على الآداب الهندية على ان ابحاثه النفسية لا تذكر بالنسبة الى ابحاثه في الآداب

(ستأتي البقية)